

تاريخ القبول: 2025/04/11

تاريخ الإرسال: 2023/06/19

تاريخ النشر: 2025/04/30

تفكيك مركزية السلطة الذكورية في الرواية النسوية الجزائرية -نماذج مختارة-

Deconstructing the centrality of male power in the Algerian feminist novel -selected models-

د. أسماء خمخام

جامعة الحاج لخضر باتنة 1 (الجزائر) khamkham.asma@univ-batna.dz

الملخص:

تروم مقالاتنا الإحاطة بأشكال تشظي السلطة الذكورية في الخطاب الروائي النسائي الجزائري وفصح ممارساتها التعسفية الاستبدادية، فلا يخفى أن الرواية النسائية العربية عامة والجزائرية بوجه خاص صيحة في واقع مستبد تركّز على اكتشاف الفعل النضالي أو السلطة المضادة لهذا الواقع، من خلال الإعلان عن رؤية سردية نسائية تخرق الطابوهات وتتجاوز المألوف والسائد، في مسعى تتوسّم به حواء الجزائرية التملّص من منطق السلطة الذكورية عبر تقويض دعائمها، وإعادة تشكيل العالم بالسرد في ضوء ما انتخبناه من سرود تطبيقية، لتنتهي الدراسة آخر المطاف إلى توثيق إبطال امتداد مفعول السلطة الذكورية وتأثيرها عبر تكريس سلطة أنثوية مضادة انتصاراً للطرف المهمّش المقموع (المرأة).

الكلمات المفتاحية: السلطة، الرواية النسوية الجزائرية، الذكورية، الطابوهات، السرد.

Abstract:

Our article intends to encompass the forms of fragmentation of masculine power in the discourse of the Algerian women novelist and to expose its arbitrary and authoritarian practices. taboos and transcend the usual and prevailing, in an effort characterized by the Algerian Eve to evade the logic of masculine authority by undermining its foundations, and reshaping the world by narration in the light of the applied narrations we have chosen, so that the study ends up documenting the invalidation of the extension of masculine authority and its influence by devoting a victorious opposite female authority For the marginalized and oppressed party (woman).

Keywords: Power, Algerian Feminist Novel, Masculinity, Taboos, Narration.

1. مقدمة:

إنّ الخطاب الرّوائي اليوم نموذج فذّ وديناميكي " يتخطّى الحدود الدينية والثقافية والجغرافية، ويأبى أن يعبر عن موضوعات محدودة وضيقة، بل يعبر عن عوالم لا نهائية، ويخوض غمار كل التجارب الإنسانية ويتجاوز كل الحدود والطابوهات، ولا يعترف بالقواعد المسبقة، ولا يأتلف مع المعطيات الموروثة والساكنة.¹ وعلى إثر ذلك فقد بات الخطاب الرّوائي مسؤولاً عن تصوير الواقع وفق علاقات ورؤى جديدة تعكس في بعض جوانبها ملامح القوة والهيمنة، التي خلّقت الحركات الاستعمارية آثارها على كل ما يتعلق ببناء الهوية والآخر.

هذا وبضطلع الخطاب الرّوائي بوظيفة هنك ستر المسكوت عنه، وتعبئة ممارسات من "السلوك والأحاسيس والأمزجة المشتركة بين البشر، والمستمرة من جيل إلى آخر.² عبر لغة تضمّر في متونها أوجها متعددة لهاجس السلطة وممارساتها

التعسفية في حق الفئات المستضعفة والمهمشة، فاللغة عامل مهم لبسط نفوذها وتحرير الأفكار والاستراتيجيات التي تريدها هذه السلطة.

ومن بين أشكال السلطة السائدة اليوم في خطاباتنا الأدبية السردية تحديداً (السلطة الذكورية) التي تثير حفيظة النوع الإنساني لاستهدافها إشكالات عويصة تتعلق بسؤال المصير والهوية والانتماء، كما وتثير جدلاً واسعاً في الأوساط الثقافية وغير الثقافية، بين طرف يُعترف له بحق الوجود وحق السيادة، وطرف آخر يُسلب منه هذا الحق عنوة، من على هذه الشرفة تسعى هذه المداخلات الإجابة عن الإشكالات التالية: ما المقصود بالسلطة، وما هي أهم آلياتها؟ ما مفهوم السلطة الذكورية؟ ما هو موقف النقد من الكتابة النسوية والكتابة ضد هذا النوع من السلطة والسلطة بشكل عام؟ وفيما تتجلى انعكاسات السلطة الذكورية في الخطاب الروائي النسائي الجزائري من خلال روايتي "تاء الخجل" لفضيلة الفاروق و "التمردة" لمليكة مقدّم؟

2. مفهوم السلطة وآلياتها:

إنّ المخلفات الميتافيزيقية واللاهوتية العالقة ضمن المكون المفهومي للسلطة جعلت منه مصطلحاً إشكالياً معقّداً، خاصّةً مع احتكار الفكر السياسي هذا المصطلح، فلطالما عرفت السلطة بأنها سلطة الدولة أو الحكم أو السياسة، كأنّها جماعة أو جهاز أو مؤسسة تهدف لسن القوانين وإخضاع الرعايا لها بالقوة والإجبار، والسلطة بمفهومها العام تعني "نظاماً يقوم على الإكراه والإقناع، تركز عليه الطبقة الحاكمة من أجل السيطرة والهيمنة لتعزيز حضورها، والمحافظة على مصالحها الاقتصادية والسياسية والأيدولوجية وتظهر ممارسة السلطة للعيان، كعلاقة بين قوتين وهي علاقة سجال وصراع وتدافع، وتأثير وتأثر".³ بهذا الوصف تظهر السلطة أداة قمع وإقصاء، تهدف للسيطرة وفرض القوة على الطرف الأضعف

المهمش، الأمر الذي يستوجب رد فعل مضاد إزاء "المتسلط" بمختلف أشكاله، أي طاقة تحويلية تحررية من أغلال السلطة وأطواقها.

والسلطة "قوة منحازة لطرف على حساب طرف آخر، يمكن معاينتها عبر مقولات خطاباتها، وما تخفيه من مصالح متناقضة، وتعمل السلطة على ترسيخ مفهومها الطبقي والتاريخي، انطلاقاً من تشكيل أنساق اجتماعية وسياسية وثقافية وغيرها".⁴

ويبرز في البنى السلطوية خطابٌ يتخذ منحنيين اثنين؛ أحدهما تراجيدي وآخر انتصاري (احتفالي)، أما التراجيدي؛ فيظهر في فعل التسلط الذي تمارسه الذات على ذات أخرى أقل شأنًا منها من حيث القوة والتفوذ وأما المنحى الانتصاري أو الاحتفالي؛ فيتجلّى في؛ وعي الذات بقدرتها على التحرر من الخنوع والخضوع لسلطات أعلى وأكثر قدرة على طمس ومحو هويتها وكيانها، فتسعى هذه الذات إلى التسلّح ضد القمع الممارس نحوها وتحرير طاقة مضادة لكسر الحواجز التي تحوّطها، وبالتالي يتحقق انتصارها على جميع أشكال القوة القمعية، وتستعيد عندئذ اعتبارها وكيانها المضطهد وحققها المسلوب.

وقد استطاع مفهوم السلطة أن ينزاح عن الفكر السياسي، بعدما كان حكرًا عليه، وهذا راجع إلى محاولة بعض التوجهات الفكرية والسوسيولوجية، انتزاع المفهوم من الفكر السياسي، لتضحى السلطة السياسية أحد أوجه السلطة بمفهومها الواسع، وما هي إلا واحدة من الأشكال التي تنتهي إليها، فهناك سلطة الأسرة، العمل، العقائد، وغير ذلك. وقد استقبلت العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية هذا المصطلح بحفاوة واهتمام بالغ كونه يفصح عن نموذج من العلاقات التي تضطهد فيها الذات الإنسانية من طرف آخر بفعل القوة.

وكثير هو الكلام عن مفهوم السلطة وتجلياتها، ومخلفاتها النفسية والثقافية والاجتماعية، لكن يجهل كثير من الناس وعلى اختلاف مستوياتهم الاجتماعية كيفية تكوّن وضع أو نظام سلطوي، أو بمعنى آخر كيف تشتغل السلطة؟

3. آليات أداء السلطة:

لتكريس المنطق السلطوي في فضاء أو جغرافيا أو جماعة ما، تلجأ السلطة إلى الاعتماد على ثلاث آليات وظيفية توثّق هيمنتها وحضورها، وتتمثل هذه الآليات في:

1.3 آلية القمع:

من أجل فرض الرقابة والعقوبات ضد المنتجات الخطابية غير المؤيدة لها تلجأ السلطة إلى آلية القمع؛ إحدى المكونات الرئيسة لنظامها، وعلى الرغم من شناعة هذه الممارسة التعسفية للسلطة ضد معارضيها فإنّ "تخليها عن آلية القمع يعرضها للمحو والاندثار، فلا يمكن تصوّر مقول السلطة وتاريخية مفهومها إلّا في ظل وظيفتها القمعية".⁵

2.3 آلية الإقصاء:

تستخدم السلطة آلية الإقصاء، من أجل تحمية وزحزة الأنظمة المعارضة لها، وإخلاء الساحة لبسط أشرة السيطرة والنفوذ على نطاق واسع وشمولي، وحتى تحقق السلطة مضامينها "تستعمل آلية الإقصاء لفرض وجودها ومخططها الذي فرضته مسبقاً، والاستدلال بالإقصاء هو من صميم خطاب السلطة أمام منافسيها، سواء أكانوا افتراضيين أم موجودين فعلاً".⁶

3.3 آلية السيطرة:

هي التّحكم الكلي في الممارسات والسلوكات المناهضة للسلطة، وذلك بالعمل على تكبيل الخصوم والعناصر المضادة لها، وتجريدتهم من أي قوة للذود والدفاع عن

النفس، وبدون آلية السيطرة "تفقد السلطة هويتها، ولهذا تنتشبت بسيطرتها المادية والرمزية، وتمارس مقاومة عنيفة تجاه الأنداد".⁷

إنَّ السلطة في جانب من جوانبها إستراتيجية حسنة وناجعة لضبط الخروقات والتجاوزات التي ينتهكها أفراد المجتمع، وتتبلور السلطة في القوانين وأجهزة الدولة ومؤسساتها من أجل الحفاظ على واقع خال من العنثية واللا نظام، فلا يمكن إيجاد واقع لا سلطة فيه، لكن إذا تعلّق الأمر بالخطاب الأدبي النسوي على سبيل المثال لا الحصر، تعدّ السلطة آلية تثبيط للحريات وقمعها، ونظام مركزي يقصي الكيانات الهامشية (الآخر) التي تظهر بمحاذاته في سبيل تقنين مكاسبه الاستبدادية وتحقيقها، ومن أبرز أشكال هذه السلطة؛ السلطة الذكورية.

4. في مفهوم السلطة الذكورية:

يوصف النظام الذكوري أو السلطة الذكورية (Patriarchy) بأنه: نظام اجتماعي يقضي بامتياز إرادة الذكر كطرف مهيم ورئيس في منظومتي العائلة والمجتمع على حساب المكونات الأقل شأنًا والأكثر هامشية، ففي تلك المجتمعات الذكورية يتدرّج النظام السلطوي الذكوري من العائلة "بسيطرة الأب والإخوة الذكور ومن ثم سيطرة الزوج وسلطة الأبناء الذكور على الإناث، وهكذا ليكون الخطاب المهيمن على المرأة هو خطاب الذكر وقراراته، فالنظام الأبوي يساهم بمفهوم السلطة الممنوحة للجانب الذكوري بإيجاد طرف مقابل خاضع لهذه السلطة، فمفهوم الخضوع والطاعة متمثل بالمرأة، وهذه البنية التراتبية للسلطة الذكورية تجاه المرأة تنتقل من العائلة إلى المجتمع ومن المجتمع إلى السلطة، لتكون هناك ثنائية من التسلط والخضوع؛ سلطة الرجل وخضوع المرأة سواء على المستوى العائلي أو المجتمعي أو السياسي".⁸

ويظهر بأنّ النّظام الذكوري يخلف بطانة قمعيّة تزيج طرفاً على حساب آخر وتقصيه من منظومة المركز، مما يخلف علاقات مهتزة وهلاميّة ومليئة بالشروحات بين حاكم ومحكوم وسيّد ومسيود، بين مركز يحظى بالأحقية في ممارسة سلطته التّعسفيّة وبين هامش خانع خاضع يؤخذ منه هذا الامتياز عنوة.

إنّ اشتغال النّظام الذكوري لا يقتصر فقط داخل حدود المؤسسة الزوجيّة أو الأسرة، بل إنّ هذه السّلطة تمتدّ بعيداً لتلقي بظلالها على أعلى سلطة في المجتمع يكون الذّكر فيها المركز (أب، أخ، هم، خال، زوج، حاكم، إمام) في كافّة المستويات وعلى جميع الأصعدة، في حين تصدر حريّة المرأة في لعب أدوار مركزيّة وحيويّة ضمن تخوم المجتمع، إنّّه ببساطة صراع جندي يساهم ضمناً في توسيع الدّوائر السّلطويّة السّائدة في الفضاء الاجتماعي، بإعلاء راية الذكورية كنظام متفوّق وأحادي منكفئ على نفسه، ويمارس ضغطاً إقصائياً على الطّرف الآخر (الأنثى) للحدّ الذي تنعدم فيه جميع أشكال التّواصل والتّفاعل، وتفنقر فيه بوادر بلورة حوار بناء يخدم الطّرفين.

5. الكتابة في مواجهة السّلطة الذكوريّة:

نخص بالذكر في هذا المقام " الكتابة النسائيّة/ النسوية " أو الأثر الأدبي المنتج من طرف المرأة ودوره في استعادة مكانتها، وترك بصمتها على كافّة الأصعدة، والوعي بالدّور الثنائي للمرأة والزّجل في الإنتاج الأدبي، ولا يخفى على أحد أنّ المرأة قد واجهت ظروفًا عصيبة وشاقة فرضت عليها، بحكم العرف والدين والعادات، الأمر الذي أدّى إلى تأخرها في الالتحاق بالحياة الثقافيّة والحضاريّة، وقد يكون "تأخر المرأة ناجم عن جهلها، فالجهل يسبب الغباوة، والغباوة تسبب الاستعباد والاحتقار، فالمرأة كانت وسيلة للإنجاب على الأكثر، تخدم زوجها وأولادها كأبسط واجباتها في هذا العالم."⁹

وللتخلص من هذه الصورة النمطية والرتبية، والمجففة في حقها ناضلت المرأة "وتحمّلت المسؤولية على عاتقها، وبدأت تكتب رفضاً للعالم الذي خلق من طرف الرجل، كما رفضت أن تلعب دور الخادمة "boniche" أو أن تكون مجرد مزهية توضع في ركن من أركان البيت للزينة.¹⁰

هذا وقد أدّى ظهور الحركات النسوية في الغرب إلى التنديد بحرية المرأة والمطالبة خلخلة أي سلطة كانت تسعى لتقييد حركة الإبداع النسوي، أما عربياً فقد توثّقت رحلة الأنثى في إبراز هويتها وتكريس ذاتها في الثقافة والفكر والكتابة مع أهم رائدات الحركة النسوية (نوال السعداوي)، (فاطمة المرنيسي) و(ليلى العثمان)، ولأنّ الكتابة هي مقاومة للاستلاب.¹¹ على حدّ تعبير (رضوى عاشور).

إن حاجة المرأة للكتابة "استدعاها التفارق المفاهيمي بينها وبين الرجل، الذي كان يستكفيها وصف حاجاتها إلى الكتابة".¹²

ويبدو أن كتابة المرأة ليست عبثاً أو شططاً أو ترفاً فنياً بقدر ما هي موقف يركز على مساع وغايات، فنجد أنّها "أزلت كل أشكال القيود، كما أزلت السيطرة الذكورية؛ حيث تستخدم جسدها عند الكتابة الروائية لتعبر عن شعورها وعواطفها من أجل إغراء القارئ، كما أنّ الرواية تحقق إبداع المرأة لذاتها بينما الرجل لا يراها فكراً واعياً".¹³

وبما أنّ الخطاب الروائي فضاء رحب ومرن ولا يستقرّ عند وضع بذاته أو تجربة بعينها، لجأت المرأة إلى هذا اللون الأدبي، كونه أكثر جدارة واستيعاباً لأهم قضايا الواقع وتناقضاته، كما أنّه نابع من أفق لا ينتهي، ومن ذات نائرة متمدّدة على هذا الواقع الذي يكبل الحرية ويقمع الإرادة، كما أنّ المرأة وضعت بصمتها من ذهب على جسد الرواية ففي دراسة بعنوان (المرأة وعنفوان الكتابة) للناقد (الأخضر بن السايح) يقر بفضل المرأة الكاتبة في الإنتاج الروائي، ويرى "أنّ الرواية أصبحت ذات

حضور قوي خاصة بعدما دخل العنصر النسوي في مجال الرواية وأنّ إنتاج المرأة العربية حول صوتها من الصمت إلى الكتابة، فشكّلت مظاهر جديدة تدعو إلى الحرية والدّفاع.¹⁴

6. تفكيك هيمنة السّلطة الذكوريّة (البطريكيّة) في الرواية النسويّة الجزائريّة:

يرتاد سرد حواء الجزائريّة مكانة مرموقة في الأوساط الأدبية والنّقدية والثقافية في العقود الأخيرة على وجه الخصوص، لما يميّز هذا النوع من الكتابة الأدبية من جرأة في التعبير عن هموم المرأة الجزائريّة ورغبتها الشديدة في الانعتاق من أطواق سيطرة المجتمع الذكوري/البطريكي، وتخلّصها من دعائم الثقافة الأبوية وتبعاتها من تهميش وإقصاء، والحلم بواقع مغاير تندمج فيه ذاتها المهمّشة المقصيّة مع الآخر وتحقّق فيها حريّتها، وتكرّس فيها هويّتها ووجودها ككيان يعترف له بالحقّ في اقتحام فضاءات التّمركز والتّفوق والاستحقاق.

والسرد النسائي الجزائري -الحال هذه- ظاهرة مكتنزة بهتك واقع السلطة الذكوريّة، وفضح ممارساتها التعسّفيّة في تثبيط وإخضاع الصّوت الأنثوي المتمرد على منطق هذه السّلطة، فهل نجحت الرواية النسائيّة الجزائريّة في إيصال هذا الصوت الذي يندّد بهيمنة السلطة الذكوريّة؟ وفيما تشبّطت أشكالها المركزية في النماذج الروائيّة المنتخبة؟ وما مدى فاعلية الرواية النسائيّة الجزائريّة في مواجهة منطق السلطة الذكوريّة وقمع امتداداتها؟

1.6 الذكوريّة والجسد الأنثوي من الانتهاك إلى التّحرّر:

يعدّ سؤال الجسد أحد الإشكالات الفلسفية والثقافية، وما من شك أن مختلف الثقافات العالمية لاسيما العربية منها حوّلت الجسد إلى خطاب هامشي وعرضي، بوصفه مكونا يقع تحت رحمة الوصاية الذكورية التي تفرض منطق الإقصاء والتّثخينة "لقد ظلّ الجسد يعيش على تخوم الهامش ككيان متشظي ومغيب، تتقاسمه النظرة

الفقهية والخطاب اللاهوتي، ثم رؤية المركز للهامش من خلال الوصاية التي تمارسها الثقافة العالمية على الثقافة الشعبية [...] في حدود مقارنته في دائرة المكبوت والمحظور والمسكوت عنه، فقد ظل حبيس النظرة الاختزالية التي كرسها المسافة الإثنوغرافية والقراءة الأنثروبولوجية الضيقة.¹⁵

لم تتوان الرواية النسائية الجزائرية في تقديم الجسد وفق قانون الانتهاك والتدنيس، وهي صيحة تستند على ميراث طويل من الاستعباد الذكوري للجسد الأنثوي في عالم تسوده الثقافة الأبوية، هذه الثقافة التي يباطنها استعداد فطري منظم ومستمر في تكريس منطق الاستحواذ للجسد الآخر المهمش (المرأة) وتملكه، يمكننا تأكيد هذا الفهم من خلال ما تتضمنه رواية "تاء الخجل" لـ (فضيلة الفاروق) من كثافة في تصوير المشاهد التي يمارس فيها الرجل سطوته على جسد المرأة بإيعاز من سلطات أكثر اتساعاً ونفوذاً منه، لعلّه يمكننا الاستئناس ببعض هذه النماذج "منذ جذتي التي ظلت مشلولة نصف قرن من الزمن إثر الضرب المبرح الذي تعرضت له من أخ زوجها وصفقت له القبيلة وأغمض القانون عنه عينيه."¹⁶

"صارت الأنوثة مدججة بالفجائع."¹⁷

"كنت مشروع أنثى."¹⁸

"لا شيء تغير سوى تنوع في وسائل القمع، وانتهاك كرامات النساء."¹⁹

"لهذا كثيراً ما هربت من أنوثتي... وكثيراً ما هربت منك لأنك مرادف لتلك الأنوثة."²⁰

إنّ هذه الانبساط الكثيف والمركّز لمجموع الخروقات التي تطل الجسد الأنثوي في مقدّمة رواية "تاء الخجل" يوحي بين تنابها عن مرافعة أنثوية مشروعة ضدّ حقّ مسلوب من طرف آخر متعال ومتسلّط، تستمدّ هذه الشرعيّة من خصوصيّة

النوع الإنساني للمرأة، ومن تقديرها لجسدها بوصفه ذاكرة حيّة شاهدة على التنازعات الأيديولوجية التي تطاله من مختلف السنن الذكورية المهيمنة، التي لم تتزحزح آليات اشتغالها القمعية منذ عهود ضاربة في القدم، حملت المبدعة المرأة على الهروب من تلك الأنوثة المزعومة والتّصلّ منها، لكونها أنوثة مشوّهة ومثقلة بهاجس التّهميش العمدي ومرادفة للقمع والاستلاب من قبل الآخر الذكوري، ومكافئة لهويّة الانتهاك والسيطرة.

إنّ تمثيلات الجسد الأنثوي في السرد النسائي الجزائري لا شكّ ينهض بمهمة ترسيخ المفهوم الاختزالي للأنوثة الذي كُرس من صميم الأنا الفحولية المتسلطة من جانب، ومن جانب آخر فإنّه سلطة مضادة مقاومة لهذا النّسق الفحولي المعادي للهويّة، وهو بشكل أو بآخر صورة طبيعية لسلسلة من السّجلات التي خاضها الفكر النّسوي مع الفكر الأبوي الذكوري، التي تحاول الرّواية النّسائية العربية والجزائرية على حدّ سواء تأصيلها كجعل الجسد ثيمة للتنازع الأيديولوجي متجاوزة ذلك المنظور الذي يختزل جسدها موطناً للذة دون سواها.

في "تاء الخجل" يقف الجسد متأرجحاً بين تنازع مختلف السلط الذكورية؛ بين طرف يستبّح خصوصيّة هذا الجسد (الإرهاب)، وآخر (الأب/الوالد) يتنصّل ويخلي مسؤوليته في حمايته، لو تطلّب ذلك اللجوء إلى قرار إنهاء الحياة وإفناء الجسد الأنثوي كخيار أنجع -بمنطق الأنا الفحولية- تحت مسمّى الشّرف والفضيلة "فالبعض يغتصب النساء باسمه... والبعض ينبذهنّ باسمه".²¹ وفي ذلك تعزيز للسلطة المركز (الإرهاب) ودعم لتوسيع تمركزها ويسط نفوذها على نطاقات شاسعة من مقومات الهويّة الأنثويّة، والجسد إحدى الوجوه الجليّة لها. تقول (خالدة) مصوّرة فظاعة الممارسة السلطوية في حق الجسد الأنثوي من تعذيب وتنكيل واغتصاب في مقابل حضور قانون الصّمت:

"ثم ابتداءً من عام 1995 أصبح الخطف والاعتصاب إستراتيجية حربية... للانتصار للشرف بقتل نسائهم ونساء من يحاربوننا... كل الجهات التي لم تعترض فيها لشرف سكانها ولم نحاكم فيها النساء... وسنوسع دائرة انتصاراتنا بقتل أمهات وأخوات وبنات الزنادقة اللواتي يقطنن تحت سقف بيوتهن واللواتي يمنحن المأوى لهؤلاء ... 55 حالة اغتصاب (لفتيات ونساء) تتراوح أعمارهن بين 13 و 40 سنة سجلت تلك السنة... تضاربت الأرقام مثيرة للانتباه في حضور قانون الصمت ... 1013 امرأة ضحية الاغتصاب الإرهابي... إضافة إلى ألفي امرأة... والبعض يقول إن العدد يفوق الخمسة آلاف حالة... يرغمونا على ممارسة العيب ... قتلت لمجرد رضوخها للأمير... كيف هي الكتابة عن أنثى سرقت عذريتها عنوة".²²

"اكتشفت أنّ الوالد هو الذي رمى بابنته من على الجسر، نسي الناس الاغتصابات الجماعية وصاروا يفكرون بريمة... قال إنه خلّصها من العار لأنها اغتصبت...".²³

"أخبرني الضابط أنّ أهلي رفضوا استقبالي من جديد اتصل بوالدي من جديد عن طريق شرطة أريس... أنكر في البداية أنّ له بنتاً".²⁴

"ليلة جاء الإرهابيون عندنا توسلتهم، قبلت أرجلهم، ترجّتهم أن يتركوني ولكن أحدهم ضربها بكعب بندقيته على رأسها فسقطت مغشياً عليها... وسكت والذي خوفاً من الأسلحة المصوّبة نحوه".²⁵

مثّلت النماذج المشار إليها حضور الأنا الفوقية/ الذكورية في السرد النسائي الجزائري وإبرازها كقوة قاهرة تفرض وصايتها على جسد المرأة ضمن ثقافة يسيطر على نواميسها الرجل تستند على خلفيات تحييزية ضدها، كما وتحيلنا على الشك في الثقافة الذكورية ودحض منطقها السلطوي وإعادة النظر في مفصلها الأساسية، إنها

فلسفة تنتقد أن يكون الذكر/الرجل يمتلك زمام السلطة والحضارة التي من المفترض بل من الواجب أن تكون مبنية على أساس من الشراكة التعاونية بين الجنسين تُنسف بموجبها أنظمة الهيمنة، وينتشل على أعقابها الجسد الأنثوي من شباك النظرة الاستهلاكية والتشبيئية لهذا المكون.

إنّ كتابة الانتهاك في منطق الرواية النسائية الجزائرية يضمن في متونه تمرّداً على النظرة التقليدية التقييدية والتزيمية والإقصائية للجسد الأنثوي وخرقاً لها هذا ما تبوح به سرديّة "المتمرّدة" لـ (مليكة مقدّم): "أتمنّع كثيراً بقدرتي على تحريك أعضاء جسمي ... أتمنّع بامتلاكي لجسدي".²⁶

إنّ هذا النموذج يضمن في متونه سلطة مضادة تحتمي بالجسد الأنثوي بوصف إحدى مكونات الهوية الأنثوية المطلقة، وبعداً إشارياً يحطّم أسوار الأفكار العرفية المعادية للأنثوية ويتكرّر لها، وآلية رادعة ضدّ النظام الذكوري وثقافته المتمددة والطاغية، ففي إطار علاقة الكتابة بالجسد الأنثوي يفصح النموذج السابق عن إمكانية استقراء الجسد باعتباره نصّاً أنثوياً يمارس أفعاله وبكامل حريته متحدّياً أسوار أنظمة الموروثات والقيم السائدة والمألوفة، فالجسد بهذا المفهوم سلطة تفكيكية لكل ما هو معتاد ومعروف، وليس حاملاً وجودياً يربط الأنثوية بالإغواء والخطيئة.

إنّ موضوع خرق المألوف والسائد في الأدب، يأتي في طبيعة الظواهر التي تمّ تداولها بشكل ملفت في السرد النسائي العربي المعاصر، لاسيما السرد النسائي الجزائري الذي استهدف الجسد الأنثوي واتّخذ وسيلة لإنتاج معان مغايرة تغلب عليها مساحة التجاوز وكسر المألوف، تظهر الجسد الأنثوي يقاوم ويقاوم مهما تعدّدت خسائره، ومن بين النماذج التي تثري هذا المنحى استرسال البطلة (خالدة) في رواية "تاء الخجل" في وصف جسد (يمينة) المنقل بأثار الآخر المعنّف المستبد من خدوش وحروق وتمزيق للأحشاء بقايا جراح...

وما جسد (بمينة) -في نظرنا- سوى بناء إيحائي رمزي يكشف امتزاج هاجس الكتابة بهاجس الألم والتحرّر، فحينما ينتقل الوجد إلى الورق، تصبح اللغة جسداً للنّاسي والكرب والشّجن، وعلى إثر ذلك يصبح الجسد المعادل الموضوعي للنّص في بعده التراجيدي التّحرّري.

وعلى هذا الأساس يتضح أنّ المقاومة بالجسد في الخطاب الروائي النسائي الجزائري تكشف عن مدى صمود الذات في وجه التّعنيف والاعتداء من جانب، ومن جانب آخر تميّط اللثام عن قوة واستبداد الآخر العدواني، وبما أنّ الكتابة النسوية في أحيان كثيرة كتابة تجاوز وخرق ضد مختلف السلطات، عمدت إلى تخليص المرأة المقاومة في معركتها الجسدية ضد الآخر العادي والباغي من كليشيهات الثقافة الجمعية التي تنهّم الجسد الأنثوي بالضعف وعدم القدرة على المقاومة، حيث لا يكاد يخرج الفضاء اللّغوي للمرأة عن مدارات الجسد الأنثوي بأبعاده التي تحرر من مجموع الكوابح التي تعايش في المجتمع العربي.

هكذا يتجاوز الجسد الأنثوي عقدة الشّهوانية في الرواية النسائية الجزائرية إلى جسد آخر يروي سردية مقاومة وصامدة، فكأنّما المبدعة الجزائرية تبعث برسالة فحواها "بجسدي أقاوم بقوة وقلمي أقاوم بشراسة" إذ يروّج الجسد في الرواية الجزائرية النسائية نسقا دفاعيا عن أهم ما يمكن أن يدين المرأة أو يشوّه براءتها، وهكذا تضافرت الروايتان "تاء الخجل" و"المتمرّدة" في تصوير رحلة الجسد من سلطان الانتهاك والتّعدي إلى الانفلات والتحرّر من أنظمة الاستبداد الأبوية- الذكورية مفكّكاً منطقها الاستعبادي.

2.6 الكتابة طوق نجاة في وجه الاستلاب الأبوي:

لا تقاوم المرأة بجسدها -فحسب- شراسة الهيمنة الذكورية وامتدادها على مستوى الخطاب الرّوائي النسائي الجزائري، بل إنّ المبدعة الجزائرية وجدت في رحلة

عبرها من النظرة التقزيمية الذكورية الضاغطة إلى آفاق التّمرّكز والاستحقاق، ملاذاً آخر يحفز فعل المقاومة ويذكّي جذوة التّحرر ألا وهو فعل الكتابة/ الكتابة، حيث اتخذت الكتابة في الإبداع الروائي النسوي منحى غير مسبوق، حيث توصف بأنّها مشروع تحرّر، وعامل إبقاء ووجود، إنّها تيمة مكافئة للحياة استطاعت أن تختزلها رواية "تاء الخجل" و"المتمرّدة" في شخصية نسائية أعلنت عصيائها على الزّاهن برفضها لسطوة الآخر (الذكوري) الذي باتت علاقتها به مختلة وعدائية، تنشد الحرّية والانعقاد، تقول البطلة (خالدة): "كان صخب الكتابة يكسر قضبان الدّاخل ويجعلني أمشي في مظاهرة ضخمة تنادي بالحياة..."²⁷

وفي رواية "المتمرّدة" نجد نماذج تدعم هذا الاتجاه التّحرري الذي يفرضه منطق الكتابة في المنجز الرّوائي النّسائي الجزائري من مثل:

"ها أنا أفترق عن الرّجل الذي أحب لأنّه هو الذي يختنق من رؤية الجسد والعقل المتوطنين مع الكتابة... الرجال لا يحتملون امرأة تمارس الكتابة إنّ الأمر قاس بالنسبة للرّجل، والأمر صعب للجميع... أكتب حتى ساعة متأخرة، حتّى الإنهاك... أكتب طول الوقت... استولت حمى الكتابة على سريري... كلمات التمرّد والارتباك تطاردني... إنّ الكتب هي أسرتي الواقفة بيني وبين العالم... الكتب تحكي لي عن عوالم غريبة..."²⁸

ومن خلال فضاء السلطة الذكورية-الأبوية في الروايتين يمكننا القول: اتخذت المرأة الكتابة مساحةً ومتفصّلاً، لتفجير طاقاتها الخلاقة والتّعبير عن رؤيا النّواعم العربية والجزائرية عن الواقع، الحب، الحياة، وحتى الخوض في مسائل الثالوث المحظور(الطابو)، وعلى ما يبدو أن تشكّل رد الفعل المضاد (الكتابة) أو السلطة المضادة نابع من مكونات نفسية؛ فالكره والرفض والعصيان والتمرّد ترسبات نفسية تكونت في الدّات بفعل الزّمن والواقع والسلطة، فمتى عاشت هذه الدّات التّغيب

والإقصاء والتهميش، بدأت تلك الرواسب النفسية العالقة في جوفها في التحفيز والتحرر، لتتبلور في شكل ردود أفعال معاكسة تقاوم التّجَرُّ كأثما الذات تتأثر لذاتها، كذلك ننوه إلى ملحظ هام؛ أنه كلما تصاعدت وتيرة التسلط وتنامت قوته استوجب رد فعل مماثل للقوة السلطوية ذاتها أو أشد قوة -مثّلت إichائياً في الروابيتين بالكتابة- ابتغاء فرض منطق التغيير وإنهاء الفعل السلطوي، وللسلطة الأبوية الذكورية دور في إذكاء جذوة الفعل المضاد، ذلك أنّ السلطة الأبوية المليئة بالقسوة والعنفوان والقوة في مواجهة الآخر، هو ما طبع الشخصيات الرئيسية في روايتي "تاء الخجل" و"التمردة".

وهذا يعني أنّه من الممكن أن تكون الممارسات السلطوية محرّكاً للفعل السلطوي المضاد، ما يشكّل انقلاباً ضدّ هذه السلطة؛ أي أن تشتغل السلطة ضد ذاتها. هذا الصّراع المستعر الذي يغطّي جسد الرواية بالكامل، ينبئ بلا شك عن نظام سلطوي يُغيّر ويقوّي على ممارسات الشخصيات وإرادتها، لذلك نشهد في صلب المتون الروائية المنتخبة أشكال تسلط شاسعة وشديدة الإحكام، في المقابل من ذلك ردود أفعال عنيفة وقوية تجاهها.

ومن خلال الكتابة أيضاً تؤكد أنّ المرأة تستطيع كما الرّجل الخوض في مسائل المسكوت عنه، وبالتالي التّخلص من الأنظمة السلطوية الاستبدادية التي تضبط الممارسات الحياتية الطبيعية والفطرية للمرأة، وتحد من الإنتاج الإبداعي النسوي الذي يضمّر في متونه عصفاً وتفنيدا لمقولة (سيمون دي بوفوار): "أعتقد أنني في الأساس خلقت لأتزوج وأنجب الأولاد ككل النساء وأنظّف القدر، وأنجب طفلاً كل سنة".²⁹

3.6 فضح منطق التفاضل والتراتبية بين الجنسين/الجنوسة:

في سياق الاشتغال على إبراز مدار التّمرّكز السلطوي للنظام الذكوري البطريكي وأثاره في النتاج الرّوائي النسائي الجزائري، نجد حوّاء المبدعة الجزائرية لا تدخّر جهداً في إذكاء الفعل النضالي المقاوم ضدّ هذا النّوع من البور السّلطوية الرياديّة، ومن بين الأنساق التي انهمك القلم النسوي الجزائري بمعالجتها نسق التمييز والتراتبية بين الجنسين، إذ يحتمّ التمرّكز الأبوي إفراز هواجس أنثوية تتدّد بخلخلة هذا النّسق الجنوسي* الذي يتّكئ على دعائم أيديولوجيّة تقرّ التفارق بين الجنسين دونما اعتبار للخصائص النّوعية البيولوجيّة المميّزة لكلّ جنس.

لهذه الرؤية -ولا شك- صداها القويم في الإبداع والفكر النسوي الجزائري، حيث شحذت المبدعة الأنثى ما أمكنها شحذه من الطاقات والاستراتيجيّات المقاطعة لفكرة الجنوسة والمندّدة بها في كافة الخطابات ذات الهوية الأنثوية لاسيما الرّواية هذا ما نستشفّه في رواية "المتمرّدة" لـ (مليكة مقدم) عندما أرادت البطلة التّعبير لوالدها عن سعادتها بعد تفوّقها في القسم الدّراسي على زملائها ليردّ قائلاً: "لا داع لهذا التّعب، فأنت لست ولداً يا ابنتي!"³⁰ وهذا ما يفصح عن رؤية مجتمعيّة حاملة لموروث ثقافي ذكوري وما يبيّنه من اختزال سافر لمعالم الهوية الأنثويّة عبر نخر النسق الجنوسي في العمق وتشويهه.

وغير بعيد عن هذا المرفأ تعالج سرديّة "تاء الخجل" تمرّكز المؤسّسة الأبوية- الذكوريّة عبر إشاعة تصوّرات كامنة في الثقافة العربيّة تعمّق وعينا بهذا المدّ السلطوي الجارف وتكشف مكامن الخنوع والتّبعيّة للمرأة، تقول الروائيّة بلسان البطلة (خالدة): "سيكسرك رجال العائلة ... أمّا ما يجعلني أفقد أعصابي هو فترة الغداء يوم الجمعة، إذ علينا نحن النّساء أن ننتظر عودة الرجال من المسجد، وبعد أن ينتهوا من تناول الغداء يأتي دورنا نحن النساء وكنت أكره ذلك التّقليد الذي يجعل منّا قطعاً من الدّرجة الثّانيّة."³¹ هذه نماذج وغيرها كثير يصب في بوتقة واحدة

وهي لفت النظر إلى هذه البنية التراتبية الرافضة لمبدأ الغيرية والتعامل معها، والوعي بالسياقات التي غدت وبسطت نفوذها أبرزها على وجه الدقة السلطة الأبوية الذكورية. وقد اضطلع مفهوم الجنوسة في الروايتين -وعلى مساحات شاسعة من عمر السرد- بوظيفة مركزة حقيقة

الفروقات بين النوعين: الرجل، المرأة، الذكر/ الأنثى المفردة من الدور الاجتماعي المنوط بهما، والمنظور الثقافي الذي يحكمهما والوظيفة من أجل تفويضها ودحر منطق سلطتها عبر تحقيق العدالة والمساواة الجنوسية.

لقد أجمع هذا الخطاب التمييزي الأبوي الذكوري منطقاً معادياً وسلطة مضادة تستهدف إزاحة المركز الضاغظ بهيمته على مقومات الأنوثة يشيعه الخطاب الروائي النسائي الجزائري، حيث يمتزج فيها الجمالي الثقافي بالفني سعياً لتشريح أشكال الانحياز والتفاضل الممارس ضد المرأة، وفي النماذج الروائية النسوية المشتغل عليها ما يوضح هذه الرؤية، تقول البطلة (خالدة) في "تاء الخجل" وفي مواجهة متمردة ومباشرة على رجال العائلة: "سأرى من سينكسر أنا أم هم".³²

بينما يشتغل منطق التمرد في رواية "التمردة" على النسق التمييزي بين الرجل والمرأة بشيء من الترميز، حيث استجدت الروائية بلغة الحلم في محاولة لبناء واقع مغاير تشيد فيه المرأة صرخاً ومنطقاً سلطوياً بعيداً عن سلطة الرجل، تقول الساردة رداً على شخصية الأب الذي سخر من تحصيلها على المركز الأول في صفها مقلداً من قدراتها وإمكاناتها، التي تعدّ -في ثقافته البائدة الزائلة- محض شطط: "سوف ترى، سوف ترى... ولكنني ظللت صامتة من الشقاء. وأنا أستلقي على فراشي، كنت أخترع لنفسني... حياة قادرة على سحق هذا الازدراء، وأصرّ على حصولي على حقّ الوجود بشكل كامل، إن لم أحصل على الإعجاب".³³

ونفضي من هذا كله إلى أنّ الكتابة الروائية النسائية الجزائرية تضر -
والحال هذه- زاداً متوارثاً من عوامل التمييز القهر والتثنية، كابدتها الذات الأنثوية،
ينسف عنها قيود التبعية والتدني، ويعزّز مكانتها كطرف فاعل وقويم في صناعة
الشأن العام، والتحرر من كافة أشكال التغييب والمسكوت عنه التي تمارسها عليها
السلطة الذكورية، أملاً في تحقيق قدر عال من الاندماج والانخراط في قضايا المرأة
العربية بوصفها عنصراً في الإنتاج الفكري والإبداعي والثقافي.

7. خاتمة:

في ختام هذه الدراسة يمكننا تحصيل جملة من النتائج أهمّها:

- نسفت الرواية الجزائرية التسوية مركزية النظام الذكوري البطريركي، عبر إعادة تشكيل عالم السرد يضمّر ضمن بعده الإيحائي أنساقاً ثقافية تقاوم التهميش والقمع، وتنمرد على الوضع النمطي المألوف، أفصح عنها الفعل المناهض أو الضدي لهذه السلطة، كما وكشفت رحلة الذات الأنثوية في بحثها عن وجودها وإنسانيتها بالانتصار إلى رغباتها على حساب الواجب والمفروض، وفي محاولة لاستعادة ذاتها تجازف بالدخول في معركة السلطة بحثاً عن انعتاق الذات، عبر الكتابة مواجهة تغييب المجتمع لها عن دائرة الفعل والتأثير، التي وصفت بأنها كتابة تجاوز وتخط، فهي كيان متعال يعصف بحضوره مختلف المؤسسات والمعايير السلطوية القابعة والمتوارية ضمن أخايد العرف، التقاليد، الدين، الثقافة وغيرها.
- قاومت المرأة الجزائرية المبدعة قيود ومنغصات واقعها الزّاهن عبر تطويع الكتابة لصالحها لإبراز دورها النصالي من خلال الإعلان عن رؤيا تفنّد كون المرأة مجرد أداة وظيفية ضعيفة ومسلوقة الإرادة، وبالتالي التمرد على مختلف أشكال السلطة بشكل عام والسلطة الذكورية بشكل خاص.

8. المراجع

¹ فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1999، ص 25.

² Water Allen, The English novel, Pelican, 1991, p: 44.

³ جيل دلوز، المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، تر: سالم يقوت، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، المغرب ط1، 1987 ص 78.

⁴ شيلي والبا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، تر: أحمد خريس، أزمة للنشر والتوزيع، عمان، ط1 2007، ص 36.

⁵ الهادي بوذيب، السلطة والمدينة في الرواية الجزائرية، مجلة الخطاب، الجزائر، العدد 24، جانفي 2017، ص 206.

⁶ المرجع السابق، ص 206.

⁷ المرجع نفسه، ص 207.

⁸ مسيون ضيف الله الدبوبي، الفكر النسوي الإسلامي في العالم العربي المعاصر بين التراث والحداثة، الآن ناشرون وموزعون، عمان، ط1، 2020، ص 204.

⁹ حسن شمس أبادي، أزمة المرأة في عدد من قصص نجيب محفوظ، مجلة دراسات الأدب المعاصر طهران، العدد 15، ص 133.

¹⁰ Anne M Nisbet, Le personnage féminin dans le roman maghrébin de la langue française, des indépendances a 1980 représentations et fonctions, ed: naaman, Canada, 1982, p: 19-20.

¹¹ يمني العيد، مساهمة المرأة في الإنتاج الأدبي، مجلة الطريق، لبنان، العدد 4، أفريل 1975، ص 78.

¹² عبد النور إدريس، هتاف المرأة والجسد بين الحرية والتحرر في السرد النسائي العربي، www.aslim.net بتاريخ: 2023/06/01، 14:38.

¹³ محمد داود، فوزية بن جلبد، الكتابة النسوية، التلقي، الخطاب والتمثيلات، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر، (د ط)، 2010، ص 61 - 62.

¹⁴ المرجع السابق، ص 21-22.

- ¹⁵ رشيد الحاجي، سيميائية الرمزي في التشكيل اليدوي، مجلة علامات، العدد 174، ص 79.
- ¹⁶ فضيلة الفاروق، تاء الخجل، رياض الريس للكتاب والنشر، بيروت، (د ط)، 2001، ص 12.
- ¹⁷ المرجع السابق، ص 14.
- ¹⁸ نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁹ نفسه، ص 12.
- ²⁰ نفسه، ص 11.
- ²¹ المرجع السابق، ص 56.
- ²² المرجع السابق، ص 36-54.
- ²³ نفسه، ص 39.
- ²⁴ نفسه، ص 74.
- ²⁵ نفسه، ص 76.
- ²⁶ مليكة مقدم، المتمردة، المركز الثقافي العربي، الرباط، ط1، 2004، ص 32.
- ²⁷ فضيلة الفاروق، تاء الخجل، ص 13.
- ²⁸ مليكة مقدم، المتمردة، ص 19-55.
- ²⁹ سيمون دي بوفوار، الجنس الآخر، تر: لجنة من أساتذة الجامعة، المكتبة الأهلية، بيروت، (د ت)، (د ط)، ص 98.
- * الجنوسة/ الجنسانية/ الجنوسيّة (sexualité): الأفكار والتصورات الاجتماعية لمعنى الرجولة والأنوثة، وهي بالتالي ليست نتاجاً مباشراً بالضرورة للجنس البيولوجي لدى الإنسان"، ينظر: قاسم المحبشي، في مفهوم الجنوسة والدراسات النسوية، www.alsharq.net.sa بتاريخ: 2023/06/02م، الساعة: 13:44.
- ³⁰ مليكة مقدم، المتمردة، ص 55.
- ³¹ فضيلة الفاروق، تاء الخجل، ص 24-29.
- ³² المرجع السابق، ص 29.
- ³³ مليكة مقدم، المتمردة، ص 55.